الفصل العاشر

ثمّة التربية في البيت

إذا نظرت إلى الأولاد –ولاسيما أولاد العامة– يسيران في الأزقة والشوارع، وسمعتهم يتفوهون بكل كلام قبيح، ويرددون كل لفظة سفيهة، ويأتون بكل إشارة سيئة تدل علي سوء أدبهم وفساد تربيتهم، فتخدش كلماتهم الآذان، وتكون إشاراتهم قذي في العيون، فأعلم أن السبب كل السبب في ذلك عدم تربية والديهم لهم في بيوتهم، وإطلاق العنان لهم منذ صغرهم ليقولوا ويفعلوا ما يريدون.

بل ربما كان الولد قد تعلم الكلام البذيء من أمه، وتلقي الإشارات السافلة عن أبيه؛ لأن سوء الحظ جعل أهل الطبقة السفلى من الشعب عندنا لا يرقبون أنفسهم أمام أولادهم، بل تراهم يجدفون أمامهم، ويلعنون، ويشتمون، ويقولون كل قول سمج، ويشيرون بكل إشارة مستهجنة.

والولد الصغير كالببغاء، يسمع الكلام فيلتقطه دون أن يفهم مغزاه، ويقوله دون أن يدرك معناه، ومتى تداوله لكثرة ما يطرق أذنيه أصبح تكراره إياه أمرًا طبيعيًا، بل مَلَكَة مستحكمة فيه، وكم شهدنا بين الطبقة السفلي (بل بين الطبقة الوسطى نفسها وأعلي منها أيضًا) أبًا وأمًا يتشاجران أمام أولادهما، فيمثلان بذلك لأعينهم أقبح مثل؛ لأنه أي احترام يبقي في فؤاد الولد الصغير لأبيه إذا شتمته أمه أمامه، وأي وقار عنده لأمه إذا كان يرى أباه رافعًا يده عليها، وكيف يرجي أن يشب الولد علي احترام أبيه وأمه إذا كانا لا يحترمان

نفسيهما ولا يعرفان لذاتهما مقامًا؟. وإذا فقد الولد عاطفة الاحترام لأبيه وأمه فهل يصح أن تكون تربيتهما إياه حسنة بعد ما ثبت أن من أهم عوامل التربية سلطة الوالدين وخضوع البنين؟.

فمن الواجب إذًا أن ينظر الوالدين في أمر أنفسهم، ويحاذروا من أجل كل كلمة يقولونها، أو إشارة يأتون بها أمام أولادهم. ولو كان الوالدون عندنا يحرصون علي هذا الأمر لما كنا نرى في شوارع الإسكندرية، والقاهرة، وبيروت، ودمشق، وحلب، وبغداد، وغيرها من مدائن الشرق وحواضره العربية زمر الأولاد والفتيات، بل فئات من الفتيان والنساء تتمثل أشكالا علي أيديهم وأناملهم.

وقد سمعنا مرة بآذاننا فتاة صغيرة من بائعات الفجل تنادي أختها الكبيرة بأقبح النداء، وأسفه النعوت، فزجرها بعض المارة، فكان معني جوابها: "وأي بأس في هذه النعوت والألقاب إذا كان أبي ينادي بها أمي وشقيقتي". فتأمل، ولا نفيض هنا في إيراد الأدلة والشواهد علي ضرر الأخذ بالطريقة التي تقدّم لنا ذكرها؛ لأننا لا نري حاجة إلي ذلك إلا إذا احتاج النهار إلى دليل.

ومع ذلك فإننا لا نجد بدًا من الإشارة إلى أمر هو في غاية الأهمية والخطارة، ونريد به ما هو مُشاهَد في كل يوم من إعجاب الوالدين والأقارب بكل كلمة خارجة عن حد الأدب تجري علي لسان الصغير، وضحكهم له حين يقولها، واستعادتهم إياه ليضحكوا له من أجلها ثانية.

ولا ينكرن علينا أحد هذه الملاحظة، فإن هذا العيب فاش بين كل طبقات الهيئة الاجتماعية في الشرق من الخاصة إلي السوقة، ومن القصر إلى الكوخ. ولقد حضرنا مرة –بل مرارًا– مجالس عائلة تقطعت فيها الساعات علي تعليم الابن الصغير كلمات الشتم لأبيه وأمه، وكان أبوه وأمه يعلمانه كلمات تلك

الحكم الباهرة، ويضحكان له فرحين بالبذاءة التي يتفوه بها دون أن يفهم لها معنى.

وحجة الوالدين في مثل هذه الحالة أن الولد صغير لا يفهم ولا يدرك، فليس في تلقينه مثل تلك العبارات بأس. وهم يجهلون أن الولد الصغير لا يبطيء أن يصير كبيرًا، والكلمات التي لم يكن بالأمس يدرك لها مغزى أصبحت تتمثل له في معانيها الحقيقية دون أن يجد صعوبة، أو انفه من التلفظ بها؛ لجريها علي لسانه قبل أن يدرك معناها.

وهكذا يربي الوالدون –أنفسهم– أبناءهم علي السفاهة، ويعودونهم علي القول الهراء وكلمات البذاء، وليس بين النقيصة في القول والنقيصة في الفعل حاجز حصين، بل ليس بينهما إلا مسافة فتر، لأن ما تكثر من ذكره يسهل عليك فعله، والإتيان به، فليتدبر الوالدون والمربون.

ومما تجب العناية به في تربية الأولاد في البيت: حملهم علي التزام جانب النظافة في كل أحوالهم، فإنك قلما ترى ولدا من أولاد العامة نظيف الوجه واليدين، نظيف الثياب والملابس، وفي ذلك من الضرر ما لا يخفى علي أحد مما بيناه في الكلام علي التربية الصحية.

وكذلك تجب العناية بتعويد الأولاد علي النظام والترتيب في كل شيء؛ لأن النظام يقي الأشياء من الضياع، ويحفظ الوقت، ويسهل العمل. ولقد أتينا هنا علي ذكر الوقت، فمن الواجب أن يعلم الأولاد منذ صغرهم علي أن الوقت ثمين، فيجب الحرص علي عدم إضاعته فيما لا فائدة منه. وإذا تعلم الولد منذ صغر سنه أن الوقت ثمين أصبح ضنينا بساعاته، فلا يصرفها متى كبر في القهاوي والملاهي، حيث تفسد الأخلاق، وتضيع الصحة والعافية.

ولما كان الشيء بالشيء يذكر رأينا أن نوجه الأنظار إلى أمر كثير الحدوث في الشرق –وربما كان ذلك من جملة اقتباساتنا الغربية– وهو أنك تمر في بعض الأيام (ولاسيما في أيام البطالة والأعياد) أمام بعض القهاوي، فترى ابن الأربعين جالسًا يدخن، وإلى جانبه ابن العشرة أو ألاثنتي عشرة جالسًا علي كرسي يأكل قطعة من الحلوى، ويجول بنظره بين جلوس القهوة والمارة في الشوارع.

ولعمري كيف يأنف هذا الولد الصغير الذي تقوده بيدك يا ابن الأربعين إلى القهوة من الجلوس فيها، وقتل الوقت بين موائدها وكراسيها متى أصبح غلامًا كبيرًا.

ولسنا نقصد بهذا القول إلى أنه ينبغي منع الأولاد عن الخروج من منازلهم إلى المنتزهات مع آبائهم وإخوانهم، ولكننا نري أن للأولاد منتزهات خاصة بهم لا يجب أن تقوم مقامها القهوة، مع ما هو معروف من أضرارها وسوء عواقب الجلوس فيها.

ومن هذا القبيل سوق الأولاد وهم صغار إلى الملاعب في الليل، بدلا من أن يتركوا في البيوت فيناموا ويتخذوا لأجسامهم راحة تعوضهم ما فقده من قواهم البدنية والذهنية.

وعادة أخذ الأولاد إلى الملاعب حيث يقضون السهرة، فلا يعودون إلى البيت إلا بعد انتصاف الليل، آخذه في التفشي والسريان يومًا عن يوم، وهي من أشد العادات ضررا وأبعدها تأثيرًا علي مستقبل الأولاد.

وهذا وينبغي لنا أن نرى الولد علي عقائد دينه، ومذهبه، واحترام الأديان الأخرى، وعدم التعرض لما لا يعنيه، والإكباب علي البحث في المسائل المفيدة، وتخصيص وقت لكل شيء، وعدم تأخير ما يمكنه فعله اليوم إلى الغد، وإكرام

الضيف، واحترام الغريب، والجري علي مبدأ المساعدة والتكاتف والتروي قبل الكلام، والتبصر قبل الحكم، ومجانية الحكم علي الظواهر.

وانزع الدعوى من رأس الولد، وعمله احتقار الكبر، والابتعاد عن الخيلاء (إذا أردت أن يكون سعيدًا)، وإياك أن يهفو الولد مرة فتقعد عن تأديبه بدعوى أنها المرة الأولي، فإذا عاد إليها أدبته، فإنه ينتقل بذلك من الهفوة الصغيرة إلى الغلطة الكبيرة، وربما رأيته بسبب إهمالك تأديبه من أجل هفوة لا تذكر واقعًا في الخطأ العظيم والجريمة الفظيعة.

ولقد طال بنا الكلام علي التربية في البيت، ونحن مع ذلك لم نستوف كل ما يجب أن يقال في هذا الموضوع الخطير الذي لو تعمدنا أن نفيه حقه من التدقيق لما كفاه هذا الكتاب برمته. فنحن إذًا نوجز الكلام واقفين منه عند هذا الحد، تاركين إدراك ما لم نشر إليه لفهم الآباء، وذكاء الأمهات، وفطنة المربين والمربيات.